الفصل السابع

امرؤ القيس

١

قبيلته وأسرته[١]

امرؤ القيس من قبيلة كندة، ومن بيت السيادة فيها، وهي قبيلة يمنية[٢] كانت تنزل في غربي حضرموت، وهاجرت منها جماعة كبيرة إلى الشمال مع هجرات اليمنيين المعروفة، واستقرت جنوبي وادي الرمة الذي يمتد من شمالي المدينة إلى العراق. وقد احتلت كما مر بنا مكانًا بارزًا في نجد منذ أواسط القرن الخامس للميلاد، فإننا نجد على رأسها أميرًا يُسمى حجرًا آكل المرار[٣] تعاقبت الإمارة في بنيه من بعده، ويظهر أنه استطاع أن يفرض سيادته على كثير من القبائل الشمالية، وأنه كان يدين بالطاعة لملوك حمير اليمنيين[٤].

وهذه الإمارة الكندية النجدية كانت تقابل إمارة المناذرة في الحيرة والغساسنة في الشام، وقد ادى وقوعها بينهما ومحاولتها بسط نفوذها على قبائل معد من حولها إلى أن تصطدم بالإمارتين المجاورتين لها جميعًا، وهو اصطدام تروى أخباره منذ قيام حجر آكل المرار، إذ كثيرًا ما كان يشتبك في حروب مع الغساسنة[٥]. وما زال يمد رقعة ملكه حتى بلغت حدود المناذرة، ويتوفي فيخلفه ابنه عمرو ويحافظ على ما ورث عن أبيه من سلطان، ويصهر إليه ملك الحيرة[٦] مما يدل على اتساع

---

(١) راجع في كندة وأمرائها كتاب أولندر السالف ذكره.

(٢) أنظر في ذلك الاشتقاق (طبعة جوتنجن) ٢/ ٢١٨ والأغاني ٩/ ٧٧ وهناك من يزعم أن كندة قبيلة عدنانية (أنظر الأغاني طبعة دار الكتب ١٣/ ٧٩ والمفضليات طبعة لايل ١/ ٤٢٧) ولكن هذا الزعم غير صحيح، ويدل على ذلك دلالة قاطعة أننا نجد في أسماء أعلامها كما قدمنا نفس الأسماء اليمنية مثل شرحبيل ومعد يكرب ابن الحارث.

(٣) آكل المرار لقب لحجر، وأصله فحل الإبل يأكل نبتًا مرًا يُسمى المرار، فكأنهم أرادوا به حجرًا الفحل.

(٤) الأغاني (طبع الساسي) ١٥/ ٢٨ وابن خلدون ٢/ ٢٧٣ وجواد على ٣/ ٢٢٠.

(٥) الأغاني ١٥/ ٨٢ وما بعدها.

(٦) تاريخ الطبري (طبعة أوربا) ١/ ٩٠٠ وحمزة الأصفهاني ص٦٩.

نفوذه، ويعقبه ابنه الحارث، وهو أهم أمراء هذه السرة، والمظنون أنه بدأ حكمه حوالي سنة ٤٩٠ للميلاد. ويذكر المؤرخون البيزنطيون أنه كان كثير الإغارة على الحدود الرومانية وكان يقود غاراته ابناه حجر ومعد يكرب، وقد أغار على فلسطين الرومانية ي عامي ٤٩٧ و٥٠١ للميلاد[١].

ولا نتقدم في القرن السادس حتى يعظم سلطان الحارث في نجد. وحدث أن غضب قباذ ملك الفرس على المنذر بن ماء السماء أمير الحيرة بسبب رفضه لمذهب المزدكية، كما مر بنا في غير هذا الموضع، فعزله وولي على الحيرة مكانه الحارث ختنه[٢]، فتحقق له حلم آبائه بتقويض الإمارة اللخمية، وولى أبناءه على القبائل، فجعل- كما تقول بعض الروايات- حجرًا على أسد وغطفان، وشرجبيل على بكر ومعد يكرب على تغلب وسلمة على قيس[٣].

وسرعان ما تطورت الأحداث، فإن الأحباش استولوا على اليمين وتوفي قباذ وخلفه كسرى أنوشروان سنة ٥٢٨ وكان يكره مزدك والمزدكية، فاضطهد أنصارها في بلاده، وأعاد المنذر بن ماء السماء إلى الحيرة عاصمته، وقد أدار مع الحارث معارك طاحنة، انتهت بقتل الحارث. وتبع المنذر أبناءه يوقع بهم ويؤلب القبائل عليهم، وسرعان ما سقط معد يكرب وسلمة في معركة تعرف بيوم أوارة الأول[٤] ويقال إن معد يكرب أصابه الجنون، وكان شرحبيل قد سقط قبل ذلك في معركة بينه وبين أخيه سلمة تعرف بيوم الكلاب الأول[٥].

أما حُجْر وهو أبو امرئ القيص فقتلته قبيلة بني أسد، ويروى صاحب الأغاني أربع روايات مختلفة في قتله[٦]، أما الأولى فقد رواها عن هشام بن الكلبي (المتوفى سنة ٢٠٤هـ) وهي تزعم أن حجرًا كان له على بني أسد إتاوة يؤدونها كل عام، فلما قتل أبوه أرسل إليهم جباته فمنعوهم

---

(١) أنظر في ذلك تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ٣/ ٢٤٥.

(٢) نفس المصدر ص ٢٣٨ وما بعدها.

(٣) نفس المصدر ص٢٤٣ وما بعدها.

(٤) نقائض جرير والفرزدق (طبعة بيفان) ص٨٨٧ وتاريخ ابن الأثير ١/ ٢٢٨.

(٥) الأغاني (طبعة دار الكتب) ١٢/ ٢٠٨ وما بعدها والمفضليات (طبعة لايل) ١/ ٤٢٨ وابن الأثير ١/ ٢٢٧ ومعجم البلدان لياقوت ٧/ ٢٦٩.

(٦) أغاني (طبعة دار الكتب) ٩/ ٨٢.

وضربوهم ضربًا مبرحًا، فسار إليهم حجر يجند من ربيعة وقيس وكنانة، فاستسلموا له، فأخذ سادتهم، وجعل يقتلهم بالعصا- فسموا عبيد العصا- وأباح أموالهم، وطردهم من منازلهم في جنوبي وادي الرمة إلى تهامة، وحبس سيدهم عمرو بن مسعود السدي، وشاعرهم عبيد بن الأبرص وقد استعطفه بقصيدة يقول له فيها:

أَنــت المليـــكُ عليهـــمُ وهـمُ العبيـدُ إلـى القِيامــه

فأثر ذلك في نفس حجر، وعفا عنهم، ولكنهم أضمروا له الانتقام، واصابوا منه غرة، فقتلوه في قبته، ونبهوا ما كان معه من أموال.

والرواية الثانية رواها أبو الفرج عن أبي عمرو الشيباني (المتوفى سنة ٢١٣هـ) وهي تزعم أن حجرًا خاف على نفسه من بني أسد، فاستجار بعوير بن شجنة التميمي لبنته هند وأهله، ثم مال على بعض بني سعد بن ثعلبة فأدركه عِلْباء بن الحارث السدي، وغافله، وقتله.

والرواية الثالثة رواها أبو الفرج عن الهيثم بن عدى (المتوفى سنة ٢٠٦) وهي تذكر أن حجرًا لما استجار عوير بن شجنة لبنيه وأهله تحول عن بني أسد فأقام في عشيرته كندة مدة، وجمع لبني أسد منهم جميعًا عظيمًا، وأقبل مدلاً بمن معه من الجنود، فتآمرت بنو أسد بينها، وقالوا: والله لئن قهركم هذا ليحكمن عليكم حكم الصبي! وما خير عيش يكون بعد قهر وأنتم بحمد الله أشد العرب فموتوا كرامًا. فساروا إلى حجر وقد ارتحل نحوهم فلقوه، فاقتتلوا قتالاً عنيفًا، وكان صاحب أمرهم علباء بن الحارث فحمل على حجر فطعنه، فقتله، وأنهزمت كندة وفيهم يومئذ امرؤ القيس بن حجر، فهرب على فرس له شقراء، وأعجزهم. وقد قتلوا من أهل بيته طائفة واسروا أخرى وملأوا أيديهم من الغنائم، وأخذوا جواري حجر ونساءه وكل ما كان معه من أموال، واقتسموا ذلك جميعه.

أما الرواية الرابعة فرواها أبو الفرج عن ابن السكيت (المتوفى سنة ٢٤٤) وهي تزعم أن حجرًا أقبل بعد موت أبيه راجعًا إلى بني أسد، وكان قد أساء ولايتهم. وتشاورت بنو أسد فيه، وأجمع أمرهم على إعلان الحرب عليه، وخرج إليه بعض شجعانهم، فقتلوا من كان يقدم ركبه من غلمانه وسبوا جواريه. وعلم حجر بذلك فقاتلهم غير أنهم هزموه وأسروه، ووثب منهم فتى كان له عنده ثأر، فقتله.

والرواية الأولى رواية هشام الكلبي، وهو متهم فيما يرويه، فهي رواية ضعيفة، ومما يدل على فسادها قصيدة عبيد التي ذكر في تضاعيفها يوم القيامة: ومن أين له بمعرفة هذا اليوم الذي جاء في القرآن الكريم وهو جاهلي وثني؟. ومثلها الروايتان الثانية والرابعة، فأثر الافتعال فيهما واضح، لسبب بسيط، وهو أن حجرًا يموت غيلة، ولا نرى عشيرته كندة تتأثر له أو تشتبك من أجله في حرب مع بني أسد. لذلك نرجح الرواية الثالثة رواية الهيثم بن عدي، وهي تتفق مع ما ردده عبيد بن الأبرص في شعره مرارًا من أن قبيلته نكلت بكندة وصاحبها حجر، وكان عبيد معاصرًا للحوادث وشاهد عيان لها، ومن قوله في ذلك يخاطب امرأ القيس[1]:

ورَكْضُك لولاه لقيتَ الـذي لَقُـوا فذاك الذي أنجاك ممـا هنالكـا

وهو يشير بذلك في وضوح إلى فرار امرئ القيس من المعركة التي قتل فيها أبوه، ونراه يصف هذه المعركة، ويصرح بهزيمة كندة فيها وقتل حجر إذا يقول معرضًا بامرئ القيس وساخرًا من وعيده وتهديده لقومه[2]:

يـاذا المخوِّفنـا بقَتـْ ـل أَبيه إذلالاً وحَيْنـا[3].

أَزعمـتَ أَنك قـد قتـا ـتُ سَرَاتنا كذبًا ومَيْنـا[4].

هلاَّ علـى حُجْر ابـن أُمِّ قَطـام تبكـي لا علينـا

هلا سأَلـت جمـع كنـ ـدةَ يـوم ولَّوا أَين أينـا

أَيـام نضـربُ هامهـم بَبواترٍ حتـى أنحنينـا[5].

(١) ديوان عبيد بن الأبرص (طبعة لايل) ص٥٣.

(٢) الديوان ص٢٧.

(٣) الحين: الموت.

(٤) السراة: السادة، المين: الكذب.

(٥) السيوف البواتر: القاطعة.

ويتكرر في ديوان عبيد وصف نهاية حجر وملك كندة على أسد بهذه الصورة مرارًا[1] مما يدل على أن رواية الهيثم بن عدى أكثر قربًا إلى الصحة والصدق وأن الروايات الأخرى دخلها الفساد والانتحال.

(١) أنظر ديوان عبيد القصائد رقم ٤، ١٧، ٢٦.

٢

حياتــه

تتردد في كتب الأدب أسماء مختلفة لامرئ القيس، فيسمى حندجًا وعديًا وملكية[١]، ويكنى بأبي وهب وأبي زيد وأبي الحارث ويلقب بذي القروح والملك الضليل[٢]، وأشهر ألقابه امرؤ القيس، والقيس من أصنامهم في الجاهلية كانوا يعبدونه وينتسبون إليه. وأبوه حجر بن الحارث كما مر بنا. أما أمه ففاطمة بنت ربيعة أخت كليب ومهلهل التغلبيين[٣]. ووهم بعض الرواة في نسبه، فقالوا إنه امرؤ القيس بن السمط بن امرئ القيس بن عمرو الكندي، وإن أمه تملك بنت عمرو بن زبيد بن مذحج من رهط عمرو بن معد يكرب[٤]. وهو خلط أوقعهم فيه تشابه اسمه مع اسم هذا الشاعر، وكان في الجاهلية ستة عشر شاعرًا كلهم يتسمى باسم امرئ القيس.

ولا نعرف مولده، ويظن أنه ولد في أوائل القرن السادس للميلاد، وليس بين أيدينا أى شيء واضح عن نشأته وكيف أمضى أيامه الأولى في شبابه إلا أخبارًا تغلب عليها الأسطورة، من ذلك ما رواه[٥] هشام الكلبي إذ يزعم أن أباه حجرًا طرده وآلى (أقسم) أن لا يقيم معه أنفة من قوله الشعر، وكانت الملوك تأنف من ذلك، فكان يسير في أحياء العرب ومعه أخلاط من شذاذ القبائل: من طيئ وكلب وبكر ابن وائل، فإذا صادف غديراً أو روضة أو موضع صيد أقام فذبح لمن معه في كل يوم وخرج إلى الصيد، فتصيد ثم عاد، فأكل وأكلوا معه، وشرب الخمر، وسقاهم، وغنته قيانه. ولا يزال كذلك حتى ينفد ماء ذلك الغدير، ثم ينتقل عنه إلى غيره. فأتاه خبر أبيه ومقتله

---

(١) أنظر جواد على ٣/ ٢٥٣ و Olinder ص٩٥ وشرح المعلقات السبع للزوزني ص١ وما بعدها والمؤتلف والمختلف للآمدي ص٩ وجمهرة أشعار العرب ص٢٠ والمزهر للسيوطي ٢/ ٤٢٢ وشرح شواهد المغني له ص٦.

(٢) الأغاني ٩/ ٧٨ وأنظر ترجمته في الشعر والشعراء لابن قتيبة (طبعة دار المعارف) ١/ ٥٢ وما بعدها.

(٣) أغاني ٩/ ٧٧.

(٤) أغاني ٩/ ٧٧.

(٥) أغاني ٩/ ٧٧ وما بعدها.

وهو بدمون من أرض اليمن، أتاه به رجل من بني عجل يقال له عامر الأعور أخو الوصاف، فلما أتاه بذلك قال:

تَطاول الليلُ عليَّ دَمُّونْ دَمُّونُ إنا معشرٌ يمانونْ

وأننـــا لأَهلنـــا محبُّـــون

ثم قال: ضيعني صغيرًا وحملني دمه كبيراً، لا صحو اليوم ولا سكر غدًا، اليوم خمر وغدًا أمر. فذهبت مثلاً، ثم قال:

خليليَّ لا في اليوم مَصْحًى لشـاربٍ ولا في غدٍ إذ ذاك ما كان يُشْـرَبُ

ثم شرب سبعًا، فلما صحى آلى أن لا يأكل لحمًا ولا يشرب خمرًا ولا يدهن بدهن (طيب) ولا يقرب النساء حتى يدرك بثأره، فلما جنه الليل رأى برقًا، فقال:

أَرِقتُ لبَـرْقٍ بلبـــلٍ أَهـلْ يضيء سَنـاه بأَعلـى الجبَـلْ

أَتانـي حديـــثٌ فكَذَّبْتُـهُ بأَمرٍ تزعزعُ منـه القُلَـلْ[1].

بقتـل بنـي أَســـدٍ ربَّهـم أَلا كلُّ شيءٍ سـواه جَلَـلْ[2].

فأَيـن ربيعةُ عـــن ربِّهـا وأَين تميـمٌ وأَيـن الخَـوَل[3].

أَلا يحضـرون لـــدي بابـه كما يحضـرون إذا مـا أَكـل

وواضح أن هذا الخبر يخالف رواية الهيثم بن عدى السابقة في مقتل حجر والتي تذكر أن امرأ القيس كان مع أبيه في حربه لبني أسد وأنه فر حين هزمت كندة وقتل أبوه، فهو من منحولات ابن الكلبي. ومثله الخبر الذي ساقه ابن قتيبة، إذ يقول إن أباه طرده لما صنع في الشعر بفاطمة ابنة عمه ما صنع، وكان لها عاشقًا، فطلبها زمانًا فلم يصل إليها، وكان يطلب منها غرة، حتى كان منها يوم الغدير بدارة جلجل ما كان فقال قصيدته: (قفا نسبك من ذكرى حبيب ومنزل) فلما بلغ ذلك اباه

---

(١) القلل: قم الجبال.

(٢) جلل هنا: هين.

(٣) الخول: العبيد.

دعا مولى يقال له ربيعة، فقال له: اقتل امرأ القيس وائتني بعينيه، فذبح جؤذرا[1]، فأتاه بعينيه. وندم حجر على ذلك، فقال: أبيت اللعن! إني لم أقتله، قال: فأتني به.. فرده إلى أبيه، فنهاه عن قول الشعر، ثم إنه قال قصيدته: (ألا أنعم صباحًا أيها الطلل البالي) فبلغ ذلك اباه فطرده، فبلغه مقتل أبيه بدمون[2]. وواضح أن هذا الخبر يلتقي بسابقه ويكتمل بنفس أسلوبه فهل منتحل، صنع تعليقًا وتوضيحًا لبعض أبيات معلقته التي يذكر فيها صاحبته فاطمة ويذكر معها يوم دارة جلجل. ومثل هذين الخبرين ما قاله بعض الرواة من أن اباه طرده لتغزله ببعض نسائه.

والحق أن هذه الأخبار ظاهرة الانتحال هي وكل ما يتصل بها من أشعار يسوقونها على لسانه، وكأن ابن الكلبي وغيره من الرواة استلهموا ما تدل عليه أشعاره الصحيحة من أنه كان صبا بالشراب والصيد ومغازلة النساء، فلفقوا هذه الأخبار، وضمنوها بعض الأشعار. وفاتهم أنه عاش في عصر الوثنية وأنه كان أميرًا من أسرة تفرض سيادتها على كثير من القبائل فلا عجب أن يحيا حياة لاهية لا تتورع عن الإثم.

على أن الدهر لم يلبث أن قلب لهذا الفتى العاكف على الصيد واللهو ظهر المجن، فإذا أبوه يقتل، وإذا هو موتور، لابد له من أخذ ثأره على عادة العرب، ولابد أن يجاهد في سبيل استرداد ملك آبائه وملك كندة قبيلته على بني أسد قتلة أبيه. ويظهر أن بني أسد خافوا العاقبة، فأرسلوا إليه- في رواية للخليل بن أحمد- وفدًا للمفاوضة، وعرض عليه الوفد إحدى ثلاث: القصاص أو الفداء أو النظرة (الإمهال) حتى تضع الحوامل، فتعقد الرايات وتكون الحرب، فقال: "لقد علمت العرب أن لا كفء لحجر في دم، وإني لن أعتاض به جملاً أو ناقة، فأكتسب بذلك سبة الأبد، وفت العضد، وأما النظرة فقد أوجبتها الأجنة في بطون أمهاتها، ولن أكون لعطبها سببًا، وستعرفون طلائع كندة من بعد ذلك تحمل القلوب حنقًا وفوق الأسنة علقًا (دما) ورويدًا ينكشف لكم دجاها عن فرسان كندة وكتائب حمير، فنهضوا عنه[3]" وقد عرفوا أنه طالبهم.

---

(١) الجؤذر: ولد البقرة الوحشية.

(٢) أنظر الشعر والشعراء ١/ ٥٤ وشرح شواهد المغنى للسيوطي ص٦.

(٣) الأغاني ٩/ ١٠٣ وما بعدها.

ويلقانا قصص كثير عن طلبه لبني أسد، وأكثره مما رواه ابن الكلبي[1]، إذ يزعم أنه ارتحل حتى نزل بكرا وتغلب فسألهم النصر على بني أسد. وعلمت بنو أسد بما يدبر لهم، فارتحلوا ولجئوا إلى بني كنانة، فاختلطوا بهم. وأقبل امرؤ القيس بمن معه من بكر وتغلب حتى انتهي إلى بني كنانة، وهو يحسبهم بني أسد، فوضع السلاح فيهم، فأعلموه أنهم ليسوا طلبته. وكان بنو أسد قد عرفوا قدومه بمن معه، فرحلوا، فتبعهم حتى لحقهم، وقاتلهم، حتى كثرت الجرحى والقتلى فيهم، وحجز الليل بينهم، فهربت بنو أسد، فلما أصبحت بكر وتغلب أبوا أن يتبعوهم، وقالوا له: قد أصبت ثأرك، وانصرفوا عنه. ومضى لوجهه حتى لحق حمير، فاستنصر أزد شنوءة فأبوا أن ينصروه، فنزل بقيل (أمير) يدعى مرثد الخير الحميري فأمده بخمسمائة رجل، وتبعه شذاذ من العرب واستأجر من القبائل رجالاً، فسار بهم إلى بني أسد، ويقال فإنهم عادوا فتركوه، ويقال إنه لجأ إلى عمرو بن المنذر ابن ماء السماء وذكر ما بينهما من صهر فأجاره، وبلغ المنذر مكانه فطلبه، فهرب. وفي رواية إن المنذر ألح في طلبه ووجه الجيوش إليه فلجأ إلى الحارث بن شهاب من بني يربوع بن حنظلة، فأرسل إليه المنذر مائة من رجاله ينذره بالحرب إن لم يسلم امرأ القيس ومن معه من بني آكل المرار. فخرج امرؤ القيس على وجهه حتى نزل في أرض طيئ وقيل بل نزل قبلهم على سعد بن الضباب الإيادي فأجاره، ثم تحول عنه إلى المعلى بن تيم الطائي، فأكرمه. وولي وجهه نحو عشيرة بني نبهان الطائية، فبذلت له من مالها، ثم خرج عنها فنزل بعامر بن جوين الطائي. وكان المنذر لا يزال يتبعه، فتحول عن طيئ إلى رجل من بني فزارة يسمى عمرو بن جابر فدله على السموأل بن عادياء صاحب حصن الأبلق بتيماء، فلجأ إليه. وهنا يزعم ابن الكلبي وغيره من الرواة أنه طلب منه أن يكتب له إلى الحارث بن جبلة الغساني بالشام ليوصله إلى قيصر، واستودعه أهله وأمواله وما كان معه من سلاح. ومضى حتى انتهي إلى قيصر في القسطنطينية، وهو حينئذ جوستنيان فأكرمه ورفع منزلته، وضم إليه جيشًا كثيفًا. ولما فصل اندس إلى جوستنيان رجل من بني أسد يقال له الطماح فقال له: "إن امرأ القيس غوى عاهر، وإنه لما انصرف عنك بالجيش ذكر أنه كان يراسل ابنتك ويواصلها، وهو قائل في ذلك أشعارا يشهرها بها في العرب، فيفضحها

(١) الأغاني ٩/ ٩٠ وما بعدها.

ويفضحك. فبعث إليه القيصر حينئذ بحلة وشى مسمومة منسوجة بالذهب، وقال له: إني أرسلت إليك بحلتي التي كنت ألبسها تكرمة لك، فإذا وصلت إليك فالبسها باليمن والبركة، واكتب إلى بخبرك من منزل منزل. فلما وصلت إليه لبسها واشتد سروره بها، فأسرع فيه السم وسقط جلده، فلذلك سمي ذا القروح، وقال في ذلك:

لقد طمَح الطمَّاح من بُعـد أَرضـه ... ليُلْبسني مما يلبِّـس أَبؤسـا[1].

فلو أنها نفسٌ تمـوت سَوِيَّـةً ... ولكنها نفسٌ تساقـط أَنفسـا

فلما صار إلى بلدة من بلاد الروم تدعى أنقرة احتضر بها، فقال:

رُبْ خُطْبَـةٍ مُسْحَنْفِـرَهْ ... وطَعْنَـةٍ مُثْعَنْجِـرَه[2].

وجَفْنَةٍ مُتَحَيِّرَه ... حَلَّتْ بأَرض أَنقره[3]

ثم مات فدفن إلى جنب المرأة، فقبره هناك!".

وهذه الأخبار عن امرئ القيس بعد مقتل أبيه ومصيره رويت في جملتها عن ابن الكلبي المتهم فيما يرويه، والتلفيق فيها بين واضح. ويمكن أن يكون لها أصل، تشهد به الحوادث، وهو أن يكون امرؤ القيس حاول عبثًا استرداد ملك آبائه، ولكنه مات دون تحقيق غايته. ومن الممكن أيضًا أن يكون قد حاول اللجوء إلى الحارث بن جبلة الغساني وأنه أوصله إلى جوستنيان في القسطنطينية، غير أنه مات في الطريق. ومن المحقق أن قصة ثأر جوستنيان لشرفه منه قصة منتحلة، نسجها القصاص حين وجدوه في شعره يفخر بمغامراته الغرامية، وكأنهم أرادوا أن لا يخلوه في القسطنطينية من ضرب من ضروب هذه المغامرات الجريئة، وقد تمادوا فجعلوه يدخل مع القيصر الحمام وقالوا إنه كان ينادمه، وإن ابنته نظرت إليه فعشقته وواصلته.

والحق أن القصص لعب دورًا واسعًا في حياة امرئ القيس، بحيث طمست معالمها، سواء قبل مقتل أبيه أو بعده، ومن ثم ذهب طه حسين إلى أن حياته بتفاصيلها وبما تزعمه من ذهابه إلى قيصر

---

(١) يريد بالأبؤس مالبسه من الحلة المسمومة.

(٢) مسحنفرة: مسهبة، شثعنجرة: سائلة.

(٣) جفنة متحيرة: ممتلئة طعامًا ودسما.

وموته في رجوعه من عنده إنما هي تمثيل لحياة عبد الرحمن بن الأشعث الكندي الذي ثار على الحجاج وحاول الاستعانة بملك الترك، وأخفق في مسعاه[1]. وفيما ذهب إليه طه حسين ضرب من المبالغة والخيال البعيد.

وإذا رجعنا إلى المؤرخين البيزنطيين لم نجد عندهم أي إشارة إلى امرئ القيص ابن حجر الكندي وزيارته لبيزنطة وطلبه النصرة منها ضد المنذر بن ماء السماء، وقد ورد عند "بروكوبيوس" اسم شخص يدعى قيسًا اقترن اسمه بغزو الحبشة لليمن سنة ٥٢٤ للميلاد، ويقال إن القيصر طلب منه أن يقود الجيوش ضد الفرس، وذكر "نونوسوس" أن جوستنيان كلفه بالسفارة لديه[2]. ومن ثم ظن كوزان دي برسفال أن قيسا المذكور عند هذين المؤرخين هو امرؤ القيس[3]، وخاصة حين رآه يزور القسطنطينية، وأكبر الظن أن هذا مجرد تشابه في الأسماء.

على أن بعض المصادر التاريخية اليونانية ذكرت في صراحة اسم شخص يدعى امرأ القيس كان من العرب التابعين لملوك الفرس، وقد جعل يغير على القبائل في شمالي الحجاز ويبسط سلطانه عليها وقد استطاع أن يستولى على جزيرة يوتابه Iotabe- جزيرة تيران الحالية في مدخل خليج العقبة- ويطرد منها عمال المكوس من الروم، وعاد فرأى أن يصانع الروم، مخافة غزوهم له، فأرسل إلى بيزنطة أسقف العرب الذين خضعوا لحكمه سنة ٤٧٣ للميلاد، ليفاوض قيصر في أن يعينه حاكمًا على جنوبي الأردن وساحل خليج العقبة، ويمنحه لقب فيلارك. ونجح الأسقف في سفارته، ودعا القيصر امرأ القيس لزيارة عاصمته، وبالغ في إكرامه، وعاد إلى بلاده[4].

وواضح، مما تذكره تلك المصادر اليونانية عن هذا الأمير وأنه كان من العرب التابعين لملوك الفرس، أنه كان من اللخميين، ولعل من الطريف أن محمد بن حبيب يذكر في كتابه "المحبر" أن فيروز ملك الفرس (٤٥٧-٤٨٣م) هو الذي نصب امرأ القيس بن المنذر اللخمي ملكًا، وإذا رجعنا إلى ملوك الحيرة في هذا التاريخ لم نجد بينهم من يتسمى بهذا الاسم، وفي ذلك ما يؤكد ما

---

(١) في الأدب الجاهلي ص٢١١ وما بعدها.

(٢) جواد على ٣/ ٢٦٥ وما بعدها.

(٣) أنظر جواد على في نفس الصفحة.

(٤) أنظر جواد على ٣/ ٢٦٧ وما بعدها.

تذكره المصادر اليونانية من أنه كان ملكًا في شمالي الحجاز، وكأنه بدأ كما تقول المصادر اليونانية مواليًا للفرس، ثم استقل عنهم، وأصفي ولاءه للروم. ومر بنا في أخبار الحارث الكندي أنه استطاع أن يفرض سلطانه على القبائل العدنانية في الشمال، ومر بنا أيضًا أنه كان يغير في أواخر القرن الخامس على تخوم الروم، وكان يقود هذه الغارات ابناه حجر ومعد يكرب. وقد يكون في ذلك ما يدل على أن الحارث استطاع أن يقضي على امرئ القيس اللخمي في شمالي الحجاز وسواحل خليج العقبة، وكأنه قضى على اللخميين في غربي الجزيرة، ومر بنا أنه استطاع أن يخضع إمارة الحيرة لسلطانه؛ فكأنه قضى على دولتهم في الغرب والشرق، وإن كان ذلك لم يدم طويلاً، إذ سرعان ما ظهر المنذر بن ماء السماء يمده كسرى أنوشروان بجيوشه، فقضى على خصمه الكندي، وعادت الإمارة اللخمية الشرقية، أمام الإمارة الغربية فلم تعد، فقد دخلت أملاكها في ملك الغساسنة.

وإنما أطلنا في بيان ذلك لندل على أن أخبار امرئ القيس بن حجر الكندي اختلطت في ذاكرة العرب بأخبار امرئ القيس اللخمي[1]، ومن هنا كنا نظن ظنًا أن امرأ القيس الشاعر الكندي لم يزر قيصر بيزنطة، وكنا ندفع هذه القصة الطويلة التي نسجت حول مقتله. غير أننا لا نرتاب في أنه حاول أن يأخذ بثأر أبيه ولكن محاولاته ذهبت أدراج الرياح. ولم يلبث أن مات، ولا نعرف بالضبط تاريخ موته، ويغلب أن يكون بين سنتي ٥٣٠ و ٥٤٠ فإن القبائل انتقضت على أبيه وأعمامه منذ سنة ٥٢٨ وهي السنة التي توفي فيها أو قتل جده الحارث.

(١) وبسبب من هذا الخلط قال هيار في ترجمته له بدائرة المعارف الإسلامية: عمل الإمبراطور جستنيان بنصيحة الحارث بن جبلة الغساني وإلى بادية الشام فدعا امرأ القيس إلى القسطنطينية حوالي عام ٥٣٠م ليستعين به على افرس ومكث هذا الشاعر طويلاً بالقصطنطينية، ثم استعمل على الشام وعلى القبائل التي تعيش هناك على الحدود ومن ثم لقب بلقب فيلارك أي الوالي ولكنه توفي في أنقرة بين عامي ٥٣٠ و ٥٤٠ في أثناء رحيله لتولي منصبه.

٣

ديوانـه

طُبع ديوان امرئ القيس مرارًا، وكان أول من طبعه دي سلان (De Slane) بباريس سنة ١٨٣٧ وقد أخرجه من مخطوطتين لكتاب "دواوين الشعراء الستة" للشنتمري، وهي دواوين امرئ القيس والنابغة زهير وطرفة وعنترة وعلقمة بن عبدة، ومعروف أن الشنتمري يحتفظ في شرحه لهذه الدواوين برواية الأصمعي، وبعد أن ينتهي منها في كل شاعر يضيف إليها بعض الزيادات من روايات أخرى. وقد نشر دي سلان الديوان باسم "نزهة ذوي الكيس وتحفة الأدباء في قصائد امرئ القيس" وجرد نشرته من شرح الشنتمري.

وعُنى المستشرق ألوارد (Ahlwardt) بنشر الدواوين الستة في سنة ١٨٧٠ ولم يأخذ برواية الشنتمري في ديوان امرئ القيس، فقد نشره من نسخة مروية عن السكري، وألحق به غير قصيدة ومقطوعة مما وجده منسوبًا إليه في كتب الأدب والتاريخ. وطبع الديوان بعد ذلك من صنعة أبي بكر البطليوسي في مصر والهند وإيران. وأخرجه حسن السندوبي في نشرة مرتبة على حروف المعجم ساق فيها كل ما وجده منسوبًا إليه في الكتب الأدبية والتاريخية. كما أخرجه مصطفي السقا مع بقية الشعراء الستة معتمدًا على رواية الشنتمري في مجموعته التي سماها "مختار الشعر الجاهلي".

وفي سنة ١٩٥٨ نشر محمد أبو الفضل إبراهيم الديوان نشرة علمية جديدة بدار المعارف في القاهرة، واعتمد في نشرته على طائفة من المخطوطات، استطاع من خلالها أن يوزعه على رواياته. وبدأ برواية الأصمعي نقلاً عن نسخة الشنتمري التي تضم الدواوين الستة كما قدمنا والتي تحتفظ بسند وثيق يصل بين الشنتمري والأصمعي، فهي رواية موثقة، وهي تشتمل على ثمان وعشرين قصيدة ومقطوعة بشرح الشنتمري، وأتبعها بتسع عشرة قصيدة ومقطوعة من رواية الطوسي وهي رواية كوفية، ويلى ذلك زيادات من هذه الرواية نص الطوسي على انتحالها، وتقع في ٣٢ قصيدة ومقطوعة. ثم زيادات من نسخ السكري وابن النحاس المصري وأبي سهل عن بعض الكوفيين. وبذلك تبلغ قصائد الديوان ومقطوعاته مائة. وقد ألحق بها أبو الفضل تخريجًا دقيقًا. وإذا أخذنا نبحث في هذه الروايات لاحظنا توًا أن أعلاها في الثقة رواية الشنتمري عن الأصمعي،

فهي موصولة السند، وقد تلاها زيادات من روايات كوفية، وبمجرد النظر في تخريجها نجد كثيرًا منها شك فيه الرواة، ومعنى ذلك أن هذه الزيادات ليست وثيقة، ولا يصح الأخذ بمضمونها والاعتماد عليها، ومثلها الزيادات الأخرى عن السكري وابن النحاس وأبي سهل.

وإذن فالرواية التي ينبغي أن نناقش الديوان ونفحصه على أساسها هي رواية الأصمعي، وقبل مناقشتها ينبغي أن نلاحظ الشبه العامة التي تحوم حول شعر امرئ القيس، ولعل أهمها ما جاء على لسان الأصمعي نفسه إذ روي عنه أنه كان يقول: "كل شيء في أيدينا من شعر امرئ القيس فهو عن حماد الراوية إلا نتقًا سمعناها من الأعراب وأبي عمرو بن العلاء"[1] وحماد في أشعاره يقابل ابن الكلبي في أخباره فأكثرها من منحوله. وفي الموشح للمرزباني: "يقال إن كثيرًا من شعر امرئ القيس لصعاليك كانوا معه، وعن الرياشي يقال إن كثيرًا من شعر امرئ القيس ليس له، وإنما هو لفتيان كانوا يكونون معه مثل عمرو بن قميئة وغيره"[2].

ولابد أن نضيف إلى ذلك قدم عهد امرئ القيس، فقد بعدت الرواية بينه وبين عصور التدوين، وقد أديل من قومه، ولم يعد لهم شأن منذ زوال دولة آبائه. ولابد أن نضيف أيضًا أنه كان في العصر الجاهلي كثير من الشعراء الذين تسموا باسم امرئ القيس، حتى يقال إنهم بلغوا ستة عشر، وقد تداخل شعرهم في شعره. وينبغي أن لا ننسى أبدًا أن رواية الأصمعي بشهادته غير وثيقة، لما دخلها من رواية حماد. وأمامنا الرواة الآخرون غير الأصمعي يلاحظون كثرة ما دخل من انتحال في شعر امرئ القيس حتى لنرى الطوسي يفرد لذلك فصلين في نسخته، فصل يذكر فيه القديم المنحول، وفصل يفرده للمستحدث المصنوع.

نحن إذن بإزاء شاعر زيفت أخباره وزيف عليه كثير من أشعاره، ولذلك ينبغي أن نتلقى رواية اللأصمعي بغير قليل من الحذر والاحتراس، وأول ما يلقانا فيها معلقته، وهي بين المعلقات التي يقال إن حمادًا أول من رواها، غير أن روايته لها شُفعت بروايات أخرى لرواة موثقين فقد رواها المفضل الضبي ورواها الأصمعي إلا أنه أنكر منها أربعة أبيات، وهي التي تبتدئ بقوله:

---

(١) مراتب النحويين ص٧٢.

(٢) الموشح ص٣٤ وأنظر ابن سلام ص١٣٤.

وقِرْبَـة أقوامٍ جعلـت عصامَهـا على كاهل مني ذَلـولٍ مُرَحَّـلِ[1].

لأنها لا تشاكل شعره، إنما تشاكل شعر الصعاليك، ومن ثم نسبها بعض الرواة إلى تأبط شرًا[2]. وتليها قصيدته (ألا عم صباحًا أيها الطلل البالي) وهي من روح القصيدة السابقة، ولم يشك فيها الرواة، فهي وثيقة عند المفضل الضبي الأصمعي وأبي عبيدة، ولذلك كنا نثبتها له. أما القصيدة الثالثة (خليلي مرابي على أم جندب) التي يقال إنه نظمها استجابة لزوجته ام جندب حتى تحكم بينه وبين علقمة الفحل أيها أشعر فإن القدماء شكوا فيها واتهموها هي وما يطوي فيها من قصة أم جندب[3] على أن من الرواة من لاحظ أنها اختلطت بقصيدة على وزنها ورويها لعلقمة بن عبدة[4]، ولعل هذا هو الذي جعل بعض الرواة يصنع قصة المعارضة وأن أم جندب حكمت بين الشاعرين، غير ملاحظين أن علقمة كان يعيش في أوائل القرن السابع، فهو ليس من معاصري امرئ القيس.

والقصيدة الرابعة (سمالك شوق بعد ما كان أقصرا) تصف رحلته إلى قيصر وصفًا مسهبًا، ويكفي ذلك لردها لأن كل ما يتصل بهذه الرحلة مما وضعه ابن الكلبي وأضرابه. وشك الأصمعي نفسه في القصيدة الخامسة (أعنى على برق أراه وميض) وقال إنها تنسب في بعض الروايات لأبي دؤاد الإيادي[5]. ويمكن أن نقبل القصيدة السادسة • غشيت ديار الحي بالبكرات) وربما كانت مما قاله بعد مقتل أبيه. أما القصيدة السابعة (ألا إن قومًا كنتم أمس دونهم) وهي في مديح عوير بن شجنة التميمي فلم يروها الطوسي بين ما وراه عن المفضل الضبي[6]، ولذلك كنا ندفعها لأنها لم تثبت فيما يظهر عند المفضل. وشك أبو عبيدة في القصيدة الثامنة (لمن طلل أبصرته

---

(١) عصام القربة: الحبل الذي تحمل به، مرحل: تعود الرحلة.

(٢) أنظر ديوان امرئ القيس (طبع دار المعارف) ص٣٧٢.

(٣) الموشح ص٣٠.

(٤) ديوان امرئ القيس ص٣٨١ وأنظر كتاب الخيل لأبي عبيدة ص١٣٦.

(٥) الديوان ص٧٢.

(٦) الديوان ص٣٩٧.

فشجاني) وقال إنها محمولة عليه[1]. والقصيدة التاسعة (قفا نبك من ذكرى حبيب وعرفان) تذكر خشبات كان يحمل عليها في مرضه، فهي تتصل بقصة رحلته إلى قيصر، وهي لذلك لا يمكن الاطمئنان إلى صحتها. والمقطوعة العاشرة (دع عنك نهبًا صحيح في حجراته) قيلت في مديح نبهاني أجاره في أثناء طوافه في القبائل ومطاردة المنذر له وربما كانت صحيحة. والقصيدة الحادية عشرة (أرانا موضعين لأمر غيب) جيدة، وهي مما رواه الأصمعي عن أبي عمرو ابن العلاء[2]. أما القصيدة الثانية عشرة (أماوي هل لي عندكم من معرس) فقد روى أبو عمرو الشيباني أنها لبشر بن أبي خازم الأسدي[3]. والقصيدة الثالثة عشرة (ألما على الربع القديم بعسعسا) تشير بعض أبياتها إلى قصة الحلة المسمومة، ولذلك كنا نرفضها. ويمكن أن نقبل القصيدة الرابعة عشرة التي نظمها في مديح سعد بن الضباب افيادي حين أجاره والتي يستهلها بقوله (لعمرك ما قلبي إلى أهله بحر) وهي مما أثبته له الأصمعي وأبو عبيدة والمفضل جميعًا. وكذلك يمكن أن نقبل المقطوعة الخامسة عشرة (لمن الديار غشيتها بسحام) وهي في عتاب سبيع بن عوف ومما قاله بعد مقتل أبيه.

أما المقطوعة السادسة عشرة (يا دار ماوية بالحائل) فقد أنكرها الطوسي وقال عن أحمد بن حاتم إنه لم يجد أحدًا من الرواة يعرفها[4]. ولا ريب في أن المقطوعة السابعة عشرة (رب رام من بني ثعلٍ) محمولة عليه، لأنها تصف عمرو بن المسبح الطائي ورميه للصيد، وكان من أرمى العرب له، وزمنه متأخر عن زمن امرئ القيس، إذ وفد على الرسول صلى الله عليه وسلم فيمن وفد عليه من العرب[5]. والمقطوعة الثامنة عشرة (يا هند لا تنكحي بوهة) أنكر الآمدي نسبتها إليه، وقال إنها لامرئ القيس بن مالك الحميري[6]. أما المقطوعة التاسعة عشرة (ألا قبح الله البراجم كلها) التي نظمها في هجاء قبائل من تميم حين خذلت عمه شرحبيل في يوم الكلاب فقد كان ابن

---

(١) الديوان ص٣٩٨.

(٢) الديوان ص٤٠٢.

(٣) الديوان ص٤٠٤.

(٤) الديوان ص٤١١.

(٥) الاشتقاق لابن دريد (طبعة جوتنجن) ٢/ ٢٣٢.

(٦) معجم الشعراء ص١٢ وأنظر الديوان ص٤١٣.

الأعرابي لا يعرفها[1]. أما المقطوعة رقم ٢٠ (إن بني عرف ابتنوا حسبًا) التي قالها في مديح عوير بن شجنة فيمكن أن تكون صحيحة. وأما المقطوعة رقم ٢١ (والله لا يذهب شيخي باطلاً) فأغلب الظن أنها منتحلة لأنهم لا يروون أنه قالها حين بلغه مقتل أبيه ومر بنا في رواية الهيثم بن عدى أنه كان حاضرًا مقتله. وقد أنكر الأصمعي المقطوعة رقم ٢٢ (ألا إلا تكن غبل فمعزى)[2]. ويمكن أن تكون المقطوعة رقم ٢٣ (ألا يا لهف هند إثر قوم) التي يقال إنه نظمها حين أخطأ بني أسد وأوقع ببني كنانة صحيحة، ومثلها المقطوعة رقم ٢٤ التي يمدح فيها المعلي الطائي والمقطوعة الخامسة والعشرون وأختها السادسة والعشرون، وهما مما نظمه في أثناء مطاردة المنذر له. أما المقطوعة السابعة والعشرون (ديمة هطلاء فيها وطف) فمما رواه الأصمعي عن أبي عمرو ابن العلاء عن ذي الرمة[3]، وهي لذلك من شعره الوثيق، أما الثامنة والعشرون التي تدور على إجازة الشطور بينه وبين التوءم اليشكري، بحيث يقول امرؤ القيس شطرًا ويتم البيت التوءم فأغلب الظن أنها من صنع الراة، ولعل اتهامها هو الذي جعل الطوسي لا يرويها بين ما أسند روايته إلى الراوي الثبت المفضل الضبي.

وإذن لا يبقى صحيحًا من رواية الأصمعي سوى القصيدتين الأوليين، وهما مطولتا، ومثلهما في الصحة والثقة القصيدة الحادية عشرة والمقطوعة السابعة والعشرون لأنهما رويتا عن أبي عمرو بن العلاء، وتظل بعد ذلك المقطوعات أرقام ٦، ١٠، ١٤، ١٥، ٢٠، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦ قابلة لأن تكون صحيحة. على أن كثرتها الكثيرة نظمت- إن صحت- بعد مقتل أبيه، يتعرض فيها لمن أجاروه ومن ردوه، وقد رويت طائفة منها على لسان ابن الكلبي في أثناء حديثه الذي رواه له صاحب الأغاني عن طلب امرئ القيس لبني أسد واستعدائه القبائل عليهم، ولذلك قلنا إنها يمكن أن تكون صحيحة. وكأنما الثابت الصحيح له إنما هو المعلقة أو القصيدة الأولى في ديوانه، وتاليتها، ثم ما أنشده أبو عمرو بن العلاء، أو بعبارة أخرى القصيدة الحادية عشرة والمقطوعة السابعة والعشرون.

---

(١) الديوان ص٤١٤.

(٢) الديوان ص١٣٧.

(٣) الديوان ص١٤٤.

٤

شعـره

حاول طه حسين أن يرد شعر امرئ القيس جميعه، لأنه يمني من كندة وشعره قرشي اللغة، وقد مر بنا في غير هذا الموضع أن كندة إن كانت يمنية الجنس فقد كانت عدنانية اللغة، كما مر بنا أن لغة قريش هي التي سادت وذاعت منذ أوائل العصر الجاهلي على لسان جميع الشعراء الشماليين سواء منهم من ينتسب إلى القبائل العدنانية ومن ينتسب إلى القبائل اليمنية، وقد أسلفنا أن أشعاره وأخباره دخلها وضع كثير. غير أن هذا كله لا ينتهي بنا إلى إنكار شعره جملة، وقد رأينا أننا لم نبق منه إلا على قلة قليلة.

ولعل أول ما يلاحظ على هذه الاشعار القليلة أنها تنقسم قسمين واضحين: قسما نظمه قبل مقتل أبيه وقسما نظمه بعد مقتله. أما القسم الأول فلا يعدو المعلقة، والمطولة الثانية في ديوانه (ألاعم صباحًا أيها الطلل البالي) وهما جميعًا مما رواه الأصمعي والمفضل الضبي وأبو عبيدة كما يتبين من تخريجهما في طبعة الديوان بدار المعارف. وإذا رجعنا إلى المعلقة وجدنا فيها جزءًا خاصًا بوصف البرق والمطر والسيول، ونجد نفس الموضوع في القطعة السابعة والعشرين التي رواها أبو عمرو بن العلاء عن ذي الرمة. ولعل في ذلك ما يؤكد صحة هذا الجزء على الأقل. ونحن نعرف أن امرأ القيس شب في ديار بني أسد بالقرب من تيماء[1]، وأن عبيد بن الأبرص كان يعاصره، وقد اشتهر بين الرواة بوصفه للمطر وإحسانه فيه[2]. واجتماعهما على هذا الوصف دليل بين على صحة ما ينسب إلى امرئ القيس منه.

ومعنى ذلك أن المعلقة تحمل بين ثناياها ما يؤكد نسبتها إلى امرئ القيس، وهو يستهلها بقوله:

قفا نَبْكِ من ذكرى حبيبٍ ومنـــزلِ بِسِقْط اللِّوَى بين الدخول فحَوْمَـلِ[3].

---

(١) لعل من أكبر الدلالة على ذلك الأمكنة التي يذكرها في معلقته فجميعها من منازل بني أسد.

(٢) ابن سلام ص٧٦.

(٣) السقط: منقطع الرمل، واللوي حيث يلتوي ويرق. وإنما خص منقطع الرمل وملتواه لأنهم كانوا لا ينزلون إلا في صلابة من الأرض، والدخول وحومل: موضعان.

وقد عدّ القدماء هذا المطلع من مبتكراته، إذ وقف واستوقف وبكى وأبكى من معه وذكر الحبيب والمنزل، ثم أخذ يصور لنا كيف كان أصحابه يحاولون أن ينفسوا عنه، وهو غارق في ذكرياته وبكائه وإرسال دموعه وزفراته وانتقل انتقالاً سريعًا يقص علينا مغامراته مع النساء، وكأنه يريد أن يستثير صاحبته فاطمة وأن يزرع الغيرة في قبلها، فهو يذكر لها بعض صواحبه اللائي أبكينه وبرح به جهن مثل أم الحويرث وأم الرباب، ثم يفيض في وصف يوم عنيزة مصورًا كيف كان ينال منها وكيف كانت تدل عليه أحيانًا، وفي أثناء ذلك يتعهر ولا يتستر، فيقول لعنيزة بيته المشهور:

فمثلكِ حُبْلَي قـد طرقـتُ ومُرْضِعـًا فأَلْهَيْتها عن ذي تمائـمَ مُغْيَـلِ[1].

ثم يعود فيبث فاطمة حبه مصورًا دلالها، ومعاتبًا لها عتابًا رقيقًا، في تلك الأبيات البديعة:

أفاطمَ مهلا بعــضَ هذا التدلُّــلِ وإن كنتِ قد أَزمعتِ صَرْمي فأَجْمِلي[2].

وإن كنتِ قد ساءَتْــك مني خليفــةٌ فسُلِّي ثيلي من ثيابـكِ تَنْسُـلِ[3].

أَغرَّكِ مني أنــك حبك قاتلــي وأَنك مهما تأْمري القلـبَ يَفْعَــلِ

وما ذرفَتْ عينــاك إلا لتَقْدَحــي بِسَهْمَيْكِ في أَعْشار قلـبٍ مُقَتَّـلِ[4].

وما يلبث أن يرجع إلى استثارة فاطمة بمغامرة جريئة له مع من كني عنها ببيضة خدرٍ لا يرام خباؤها، مصورًا كيف اقتحم إليها الأهوال والأحراس وكيف انتحى بها ناحية من الحي يتبادلان فيها الصبابة والغرام، يقول:

وبَيْضةِ خِدْرٍ لا يُرَامُ خِباؤُها تمتَّعْتُ من لَهْوٍ بها غيرَ مُعْجَــلِ[5].

---

(١) التمائم: جمع تميمة وهي العوذة تعلق على الصبي، المغيل: المرضع.

(٢) بعض هذا التدلل: أي كفي عن بعضه، وأزمعت: عزمت، وأجملي: من التجمل وهو ترك ما يقبح.

(٣) سلى ثيابي من ثيابك: انزعي امري من أمرك، وتنسل: تسقط.

(٤) ذرفت العين: سال دمعها، الأعشار: القطع، يقول؛ ما بكيت إلا لتجرحي قلبًا مكسرًا.

(٥) شبه صاحبته بالبيضة لبياضها ورقتها.

تجاوزتُ أَحراسًا وأَهوال مَعْشـــرٍ ... علَّى حِراصٍ لو يُشِرُّون مَقْتَلـــي[1].

إذا ما الثُّرَيَّا في السماء تعرَّضَـــتْ ... تعرُّضَ أَثناء الوشاحِ المفصَّـــل[2].

فجئتُ وقد نَضَتْ لنومٍ ثيابـــها ... لَدى السِّتْرِ إلا لِبْسَةَ المُتَفَضِّـــل[3].

فقالتْ يمينُ الله مالك حِيلَـــةٌ ... وما إنْ أَرى عنك العَمايةَ تَنْجَلـــي[4].

خرجتُ بها تمشي تجرُّ وراءَنـــا ... على أَثَرَيْنَا ذَيْلَ مِرْطٍ مُرَحَّـــل[5].

فلما أَجزْنا ساحةَ الحيِّ وانتحـــى ... بنابَطْنُ حِقْفٍ ذِي رُكام عَقَنْقَـــل[6].

إذا التفتتْ نحوي تضوَّعَ ريحُهـــا ... نسيمَ الصَّبا جاءَتْ بَرِيَّا القَرَنْفُـــلِ[7].

إذا قلتُ هاتي نَوِّليني تمايلـــتْ ... عليّ هَضيمَ الكَشْح رَيَّا المُخَلْخَـــل[8].

فهو يذكر خدرها وأحراسها ومنعتها، وكيف وصل إليها وقد استعدت للنوم وما كان بينه وبينها من حوار، وكيف أطاعته وخرجت معه من الحي إلى مكان بعيد لا تراهما فيه العيون، وكيف كانت تعفي آثار أقدامهما بأذيال ثوابها الموشى، واسترسل يصف محاسنها ومفاتن جسدها وأطرافها، مصورًا كيف تستصبى الرجال وتعبث بقلوبهم.

---

(١) يشرون: يظهرون.

(٢) يقول: تجاوزت هذه الأحراس حين مالت الثريا للمغيب فأرتك جانبًا منها على نحو ما ترى من جانب الوشاح حين يتلقاك بناحية منه، والمفصل: الذي جعل بين كل خرزتين فيه لؤلؤة.

(٣) نضت: نزعت: اللبسة: هيئة اللباس. المتفضل: اللابس ثوبًا واحدًا.

(٤) العماية: الغواية والجهالة.

(٥) المرط: إزار من خز، المرحل: الموشى.

(٦) أجزنا: قطعنا، والساحة الفناء. والحقف: المعوج من الرمل، وركام: بعضه فوق بعض، وعقنقل: منعقد متداخل. والواو في وانتحى زائدة لأنها جوانب لما.

(٧) تضوع: انتشر. الريا: الرائحة.

(٨) هضيم: ضامر، الكشحك الخاصرة، وريا المخلخل: أي أن موضع الخلخال من ساقيها ممتلئ.

ومن يقرا هذه المغامرات القصصية عند امرئ القيس تفد على ذهنه توا مغامرات ابن أبي ربيعة في غزله، لا من حيث حواره مع النساء وحكايته لأحاديثهن وكلامهن فحسب، بل أيضًا من حيث وصف الدبيب إليهن في الليل ومنعة أحراسهن على نحو ما تصور ذلك رائيته المشهورة:

أَمِنْ آل نُعْمٍ أَنتَ غــادٍ فَمُبْكِــرُ غداةَ غَــدٍ أَم رائحٌ فَمُهجِّــرُ

وقد لاحظ طه حسين هذا التشابه في غزل الشاعرين، فأنكر ما ينسب إلى امرئ القيس من هذا الغزل القصصي الصريح وقال إنه انتحل انتحالاً، انتحله بعض القصاص على غرار ما وجدوا منه عند ابن أبي ربيعة[1]. وليس هناك ما يمنع أن يكون ابن أبي ربيعة قد عرف غزل امرئ القيس وتأثر به كما تقضي طبيعة التأثر إذ تأثر اللاحق بالسابق، ومن التحكم أن نرفض ذلك، ولعل خيرًا من هذا الرفض أن نقارن بين صنيعي الشاعرين في وصف مثل هذه المغامرات وننفذ إلى ما بينهما من فروق، فكلاهما حقًا يتحدث عن زيارته لصواحبه وما يتجشم فيها من أهوال، وما يكون بينه وبينهن من لهو، غير أننا نلاحظ عند عمر كما تصور ذلك رائيته تفننًا في رقة النجوى وفي كلف صواحبه به، بينما يمضي امرؤ القيس في وصف مغامراته مع النساء وصفًا حسيًا حتى ليتحول في بعض جوانبه إلى صورة من التهتك الخلقي الفاحش، على نحو ما أشرنا إلى ذلك في حديثنا عن قضية الانتحال.

وكل ما يمكن أن يقال أن هذا المنحى من القصص الغرامي منحى قديم بدأه امرؤ القيس ونماه من بعده الأعشى[2]، ثم كان العصر الأموي فتعلق به عمرو بن أبي ربيعة وأضرابه. ولعل من الطريف أنه لا يتضح عند امرئ القيس في المعلقة وحدها، فمثلها المطولة (ألا عم صباحًا أيها الطلل البالي) فإنها تذهب نفس المذهب الذي رأيناه في المعلقة، وهو يفتتحها بالوقوف على أطلال سلمى، ثم يفيض في وصف مغامراته وعبثه الفاجر مع بعض النساء بالضبط على نحو ما رأينا في المعلقة، يقول:

---

(١) في الأدب الجاهلي ص٢٢١.

(٢) ابن سلام ص٣٥.

سموتُ إليها بعد ما نام أَهلُــها ... سموَّ حَبابِ الماء حالاً علــى حالِ[1].

فقالتْ: سَباكَ اللهُ إنك فاضحــى ... أَلستَ ترى السُّمَّار والنــاسَ أَحوالي[2].

فقلتُ: يمينَ الله أَبرحُ قاعــدًا ... ولو قطَّعوا رأسي لديـكِ وأَوصالي

فلما تنازعْنا الحديثَ وأَسمحــتْ ... هَصرتُ بُغصْنٍ ذي شماريـخَ ميَّالِ[3].

وصِرْنا إلى الحُسْنَى ورقَّ كلامُنــا ... ورُضْت فذَلَّتْ صعبــةً أَيَّ إذلال[4].

فأصبحتُ معشوقًا وأَصبح بَعْلُــها ... عليه القتامُ سَيِّـئَ الظـنِّ والبـال[5].

يَغِطُّ غطيطَ البَكْر شُدَّ خِناقُــهُ ... ليقتلني والمـرءُ ليـس بقتـَّال[6].

أَيقتلني والمَشْرَفِيُّ مُضاجعــي ... ومسنونةٌ زرْقٌ كأَنْيـاب أَغْـوال[7].

وكأن امرأ القيس هو الذي سبق إلى هذا الغزل الفاحش الصريح، وتبعه الشعراء من بعده وإن لم يبلغوا مبلغه من الفحش والصراحة وقد تبعوه في تشبيبه الذي يودعه مقدمات قصائده وما يطوي فيه من بكاء ولوعة.

---

(١) سموت إليها: يريد نهضت إليها شيئاً فشيئًا لئلا يشعر أحد بمكاني فكنت مثل حباب الماء يعلـو بعـضه بعـضًا في رفـق ومهل.

(٢) سباك: باعدك وأذهب عقلك.

(٣) تنازعنا: تبادلنا، وأسمحت: انقادت وسهلت. وهصرت: جذبت: وأراد بالغصن قامتهـا وبالمـشماريخ شـعرها شـبهه بشماريخ النخل لكثرته وغزارته.

(٤) رضت: أذللت، وذلت: لانت.

(٥) القتام: الغبار يريد أن بعلها ساءه ما رآه ميلها إليه فأصبح كأنه مغبر كاسف الحال.

(٦) يغط: يردد صوتًا كصوت البكر وهو الشاب من الإبل يشد حبل في خناقه، فيسمع له غطيط، كأنه يريـد أن يقـول إنـه يردد صوتًا كصوت البعير المختنق.

(٧) المشرفي: السيف، والمسنونة الزرق: السبام.

ورجع في معلقته بعد حديثه عن بيضة الخدر يصف لصاحبته شقاءه بحبها وأنه لا يستمع فيه إلى نصيحة ناصح، ولا إلى عذل عاذل، ويصور كيف يقتحم إليها الليل المخوف، ويسترسل في وصفه فيقول:

وليلٍ كموج البحر أَرْخَى سُدولَـهْ ... عليَّ بأَنواع الهموم لِيَبْتَلِـي[1].

فقلت له لما تمطَّى بصُلْبِـهِ ... وأَردفَ أَعجازًا وناءَ بكَلْكَـل[2].

أَلا أَيُّها الليل الطويلُ أَلا أَنْجَلِـي ... بِصُبْحٍ وما الإِصباحُ فيك بأَمْثَل[3].

فيالك من ليلٍ كأَن نجومـه ... بكل مُغارِ الفَتْل شُدَّتْ بِيَذْبُـل[4].

كأَن الثُّرَيَّا عُلِّقَتْ في مَصَامِهـا ... بأَمْرَاس كَتَّانٍ إلى صُمِّ جَنْـدَل[5].

فهو يتصور الليل بسواده وهمومه كأنه أمواج لا تنتهي، ويحس كأنه طال وأسرف في الطول حتى ليظن كأن نجومه شدت بأسباب وأمراس من الجنادل والجبال فهي لا تتحرك ولا تزول، كأنما سمرت في مكانها، فهي لا تجرى ولا تسير، وقد ردد الشعراء بعده هذا المعنى طويلاً. ونراه يخرج منه إلى وصف فرسه وصيده ولذاته فيه، وكأنه يريد أن يضع بين يدي صاحبته فروسيته وشجاعته ومهارته في ركوب الخليل واصطياد الوحش، يقول:

وقد أَغْتَدى والطيْرُ فـي وُكُناتهـا ... بمُنْجَرِدٍ قَيْد الأَوابدِ هَيْكَـلِ[6].

مِكرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِـلٍ مُدْبِـرٍ معـًا ... كَجُلْمُودِ صَخْر حَطَّه السَّيْلُ من عَـلِ[7].

---

(١) السدول: الستور.

(٢) تمطي: امتد. بصلبه: بظهره. وفي رواية بجوزه والجوز: الوسط. والكلكل: الصدر، وناء: نهض.

(٣) أنجلي: انكشف. وما الإصباح بأمثل: يريد أنه مهموم في الليل وفي الصبح.

(٤) مغار: شديد. يذبل: جبل.

(٥) المصام: مكانها الذي لا تبرحه، والأمراس: جمع مرس وهو الحبل. والجندل: الحجارة الكبيرة، والصم: جمع أصم وهو الصلب الشديد.

(٦) الكونات: المواضع التي تأوى إليها الطير ليلاً، والمنجرد: الفرس قصير الشعر، الأوابد: الوحش، هيكل: ضخم.

(٧) الجلمود: الصخرة الصلبة، حطه: اسقطه.

كُمَيْتٍ يَزِلُّ اللِّبْدُ عن حال مَتْنِـهِ ... كما زَلَّتِ الصَّفْوَاء بالمتنَـزَّلِ[1].

مِسَحٍّ إذا ما السابحاتُ على الوَنَـى ... أَثَرْنَ غُبارًا بالكَدِيدِ المُرَكَّـلِ[2].

على العَقْبِ جَيَّاشٍ كأَن اهتزامَـهُ ... إذَا جَاشَ فيه حَمْيُهُ غَلْيُ مِرْجَلِ[3].

يُطِيرُ الغُلامَ الخِفَّ عن صهواتِـه ... ويُلْوي بأَثواب العنيفِ المُثَقَّـلِ[4].

دَرِيرٍ كخُذْروفِ الوليـدِ أَمَـرَّه ... تقلُّبُ كَفَّيْهِ بخيـطٍ مُوَصَّـلِ[5].

له أَيطلا ظبْيٍ وساقـا نعامـةٍ ... وإرْخاءُ سِرْحانٍ وتقريبُ تَتْفُـلِ[6].

كأَنَّ على الكِتْفَيْنِ منـه إذا انْتَحَـى ... مَدَاكَ عَروسٍ أَو صَرَايَةَ حَنْظَـلِ[7].

وهو وصف رائع لفرسه الأشقر، فقد صور سرعته تصويرًا بديعًا، وبدأ لجعله قيدًا لأوابد الوحش إذا انطلقت في الصحراء فإنها لا تستطيع إفلاتًا منه كأنه قيد يأخذ بأرجلها. وهو لشدة حركته وسرعته يخيل إليك كأنه يفر ويكر في الوقت نفسه وكأنه يقبل ويدبر في آن واحد، وكأنه جلمود صخر يهوى به السيل من ذروة جبل عال، وإن لبده لشدة حركته ليسقط عنه وينزلق كما تنزلق الصخرة من منحدر بعيد. وهو يصب الجرى صبًا، ويسبق كل الخيل سبقًا، لا يثير غبارًا ولا نقعًا، إنما هو أن يحركه راكبه فإذا به يغلى غليان القدر لا ينى ولا يفتر، وإذا راكبه لا يستطيع الثبات

---

(١) الكميت: الفرس الأحمر في سواد. يزل: يسقط، حال المتن: موضعه من وسط الظهر، الصفواء: الصخرة الملساء، المتنزل: النازل عليها.

(٢) مسح: عداء يصب الجرى صبا، السابحات: الخيل المسرعة. الونى: الضعف والفتور. الكديد: ما غلظ من الأرض، المركل: الذي ركلته الخيل بحوافرها. يريد أن حوافره لا تكاد تمس الأرض، وهي لذلك لا تثير بها غبارًا كما تصنع السابحات.

(٣) العقب: جرى بعد جرى، اهتزامه: صوت جوفه عند الجرى، الحمى: الغلى، المرجل: القدر.

(٤) يطير: يسقط، الخف: الخفيف، والصهوات: موضع اللبد من ظهره، ويلوى بأثواب العنيف: يذهب بها. العنيف: الأخرق، المثقل: الذي لا يحسن الركوب.

(٥) درير: سريع، خيط موصل: وصلت أجزاؤه، أمره: أمضاه.

(٦) السرحان: الذئب، التنفل: الثعلب والإرخاء: العدو، التقريب: القفز.

(٧) مداك العروس: حجر تسحق عليه طيبها فيبرق، شبه به الفرس في بريقه. الصراية: حنظلة صفراء براقة.

عليه، وما أشبهه في سرعة انطلاقه بلعبة الحذروف الدوارة التي يلعب بها الصبيان، إذ يصلونها بخيط ويسرعون في إمرارها إسراعًا. وهو فرس ضامر كأنه ظبي نافر، فله خاصرتاه النحيلتان، بل لكأنه نعامة خفيفة فله ساقاها الضئيلتان الصلبتان، وهو يهوى في الأرض كأنه الذئب الفزع، ويقفز كأنه الثعلب الخائف، وإذا اعترضك خيل إليك للمعانه وبريقه أنك تنظر إلى مداك عروس أو صراية حنظل. واستطرد امرؤ القيس يتحدث عن صيده، فوصف سربًا من بقر الوحش عن لهم في الصحراء مصورًا كيف قيده فرسه، فإذا هو يلحق بأوائله تاركًا وراءه ما تخلف منه. فصادوا ما ابتغوا، وأخذ الطهاة يعدون لهم طعامهم بين مشوي ومطبوخ. وانتقل من ذلك إلى وصف الأمطار والسيول التي ألمت بمنازل قومه بني أسد بالقرب من تيماء في شمالي الحجاز، يقول:

أَحارِ ترَى بَرْقًا كـأَنَّ وميضَـه ... كَلَمْع اليدين في حَبـيٍّ مُكَلَّـل[1].

يضِيءُ سَناهُ أَو مصابيـحُ راهـبٍ ... أَهانَ السَّليطَ في الذُّبـال المفتَّـل[2].

قعدتُ له وصحبتي بيـن حامِـرٍ ... وبين إكام بُعْدَ مـا مُتَأَمَّـل[3].

وأَضحى يَسُحُّ الماءَ عـن كل فِيقـةٍ ... يكبُّ على الأَذقان دَوْحَ الكَنَهْبَـل[4].

وتَيْماءَ لم يترك بهـا جِذْعَ نَخْلَـةٍ ... ولا أُطُمًا إلا مَشِيـدًا بجَنـدَلِ[5].

كأَن طَمِيَّـةَ المُجَيْمـرِ غُـدْوَةً ... من السَّيْلِ والغُثَّاء فَلْكَـةُ مِغْـزَلِ[6].

كأَن أَبانًـا فـي أَفانين وَدْقِـهِ ... كبيرُ أُناسٍ في بِجـادٍ مُزَمَّـل[1].

---

(١) حار: ترخيم حارث يعني يا حارث، وميض البرق: لمعانه. الحبي من السحاب: المتراكم، وكذلك المكلل، وقيل الحبي: الداني من الأرض.

(٢) السنا: الضوء، السليط: الزيت، الذبال: الفتائل، وأهانه هنا: أكثر منه، ويروي أمال بمعنى رعى، وهي أجود.

(٣) حامر وإكام: موضعان، بعد ما متأمل: تأملته من مكان بعيد.

(٤) الفيقة: ما بين الحلبتين: يريد أنه يسح ثم يسكن ثم يسح. وعن: معناها هنا بعد، يكب على الأذقان: يسقط ويلقى على الوجه، الكنهبل: ما عظم من شجر العضاه، والدوح: جمع دوحة وهي الشجرة كثيرة الورق والأغصان.

(٥) الأطم: البيت.

(٦) طمية: جبل، المجيمر: أرض لبني فزارة، الغثاء: ما يحمله السيل من فتات الشجار. وفلكة المغزل: ما استدار فوق رأسه.

وأَلقى بصحـــراء الغَبيط بَعاعَـــهُ نُزُولَ اليماني ذي العِياب المخـوَّل[٢].

كأَن سِباعًا فيـــه غَرْقَى غُدَيَّـــةً بأَرْجائه القصوى أَنابيشُ عُنْصـــل[٣].

على قَطَنٍ بالشَّيْم أَيمنُ صَوْبِـــهِ وأَيْسَرُهُ علـى السِّتـار فيَذْبُـلِ[٤].

أَلقى بِبُسْيانٍ مع الليل بَرْكَـــهُ فأَنزل منه العُصْمَ من كل منـزلِ[٥].

وقد استهل القطعة بوصف وميض البرق وتألقه في سحاب متراكم، وشبه هذا التألق واللمعان بحركة اليدين إذا أشير بهما أو كأنه مصابيح راهب يتوهج ضوؤها بما يمدها من زيت كثير. ويصف كيف جلس هو وأصحابه يتأملونه بين حامر وإكام، والسحاب يسح سحًا، حتى لتقتلع سيوله كل ما في طريقها من أشجار العضاه العظيمة. وتلك تيماء لم تترك بها نخلاً ولا بيتًا، إلا ما شيد بالصخر، فقد أجتثت كل ما مرت به وأتت عليه من قواعده وأصوله. وهذا طمية جبل المجيمر التفت به السيول وما تحمل من غثاء، حتى لكأنه فلكة مغزل. وذاك أبان بما غطاه من هذا السيل والغثاء يشبه شيخًا ملتفًا في كساء مخطط. وقد ألقى بصحراء الغبيط ثقله فنشر به من النباتات والأزهار ما يشبه ضروب الثياب الزاهية الألوان التي ينشرها التاجر اليماني حين يعرضها للشراء. وما زالت السيول تفيض حتى علمت آجام السباع فغرقت في لججها وتراءت رءوسها للعين كأنها جذور البصل البري. وقد تراكم السحاب وملأ أقطار السماء حتى ليظن مبصره أن أيمنه على قطن جبل بني أسد وايسره على الستار ويذبل مما يلي بلاد البحرين، وعم المطر جبل بسيان حتى أنزل منه الأوعال التي كانت مستقرة به.

---

(١) ابان: جبل، أفانين: ضروب الودق: المطر، البجاد: كساء مخطط، ومزمل: صفة لكبير أناس أى أنه متدثر بثيابه ملتف بها.

(٢) الغبيط: موضع، البعاع: الثقل، العياب: الحقائب، المخول: كثير المتاع والغلمان الذين يصحبونه.

(٣) غدية: حين يصبح الناس، وأنابيش العنصل: جذور البصل البري.

(٤) قطن: اسم جبل في ديار بني أسد، الشيم: النظر إلى البرق والمطر. الستار ويذبل: جبلان.

(٥) يسيان: جبل، والبرك: الصدر، العصم: الأوعال.

ولامرئ القيس مقطوعة في الغيث والسيل تلتقي في كثير من معانيها وصورها بهذه القطعة، وهي ذات الرقم ٢٧ في ديوانه، وقد مر بنا أن أبا عمرو بن العلاء رواها عن ذي الرمة، وهي تمضي على هذا النحو:

دِيمَةٌ هَطْلاَءُ فيها وَطَفٌ ... طَبَقُ الأَرض تَحَرَّي وتَدُرّْ(١).

تخْرجُ الوَدَّ إِذا ما أَشْجَذَتْ ... وتُواريه إذا ما تَشْتَكِرْ(٢).

وترى الضَّبَّ خفيفًا ماهرًا ... ثانيًا بُرْثُنَهُ ما يَنْعَفِرْ(٣).

وترى الشَّجْرَاءَ في رَيِّقِهِ ... كرءوسٍ قُطِّعتْ فيها الخُمُرْ(٤).

ساعةً ثم انتحاها وابِلٌ ... ساقِطُ الأَكناف واهٍ مُنْهَمِرْ(٥).

راحَ تَمْريه الصَّبا ثم انْتَحَى ... فيه شُؤْبوبُ جنوبٍ مُنْفَجِرْ(٦).

ثَجَّ حتى ضاق عن آذِيِّهِ ... عَرْضُ خَيْمٍ فجُفافٍ فَيُسَرْ(٧).

قد غدا يحملني في أَنْفِهِ ... لاحقُ الإِطْلَيْنِ محبوكٌ مُمَرّ(٨).

---

(١) الديمة: المطر الدائم، هطلاء:كثيرة الهطل، والوطف: الدنو من الأرض. طبق الأرض: تطبقها وتعمها لكثرة مطرها. تحري: تعمد إلى الأمكنة وتثبت فيها. وتدر: يكثر ماؤها وترسل درتها.

(٢) الود: الوتد، أشجذت: أقلعت وسكنت. تشتكر: تحتفل ويكثر مطرها. وقيل الود اسم جبل.

(٣) خفيفًا ماهرًا: يريد مسرعًا في عدوه. وبرثن الضب: كالإصبع للإنسان. وما ينعفر: لا يصيبه العفر والتراب، يقصد أنه لا يلصق بالتراب لخفة عدوه.

(٤) الشجراء: الأرض ذات الشجر الكثير، ريق المطر: أوله، يريد أن المطر يغمر الأشجار فلا يبدو منها إلا أعاليها، فتتراءى كأنها رءوس قطعت وفيها الخمر وفيها العمائم.

(٥) انتحاها: قصدها. وابل: مطر غزير، ساقط الأكناف: دان من نواحي الأرض. واء: متخرق، منهمر: منسكب.

(٦) راح: عاد بالمطر في آخر النهار. تمريه: تحركه وتديره. الشؤبوب: دفعة المطر، والجنوب: ريح. منفجر: سائل.

(٧) ثج: سال. الآذى: الموج. وخيم وجفاف ويسر: مواضع.

(٨) يحملني في أنفه: يريد في أنف المطر أى أوله. لاحق الإطلين: فرس ضامر الكشحين، محبوك: موثق الخلق ومثله ممر، وأصله من الحبل الممر، وهو المحكم الفتل.

وهو يصور في هذه المقطوعة منظرًا يماثل المنظر السابق، فالمطر ينهمر حتى يعم الأرض من حوله، وهو يدر لها ويدنو منها بأهدابه، وحينًا يُقلع فتبدو الأوتاد من الأرض ولا يلبث أن يعود وتكثر سيوله فتتوارى عن الأنظار. وتترع القيعان فيخرج الضب من جحره يعدو عدوًا سريعًا لما يرى من كثرة المطر. وما تزال السيول تتدفق حتى تغمر الأشجار بل حتى لا يبدو منها إلا أعاليها، فتتراءى كأنها رءوس معممة قطعت في ساحة حرب عنيفة. وظل المطر على هذا الأنصباب الشديد فترة لم تنكشف بعدها السماء، فقد ألقت السحب بوبلها وأثقالها تستدرها ريح الصبا الشمالية. ولم تلبث ريح الجنوب أن هبت فانهمرت الأمطار وعلت السيول حتى ضاقت بها خيم وجفاف ويسر.

وأكبر الظن أنه قد اتضحت الآن الموضوعات الأساسية التي كان ينظم فيها امرؤ القيس شعره قبل مقتل أبيه، وهي التشبيب، والغزل القصصي الصريح، ووصف الطبيعة المتحركة بما فيها من خيل ووحش والطبيعة الصامتة بما فيها من أمطار وسيول. فتلك هي الموضوعات التي تستغرق أشعاره الأولى. وتجمعها المعلقة جميعًا، بينما تقف المطولة الثانية (ألا عم صباحًا ايها الطلل البالي) عند التشبيب والقصص المادي، ووصف الوحش والفرس، وهو في أثناء وصفها يعرض لصيده وما يجده فيه من لذة ومتاع ولهو.

وكُتب لامرئ القيس أن لا تجرى حياته على هذه الوتيرة من الفراغ الذي يعد لاقتناص اللذات في أتباع المرأة واللهو بها والمتعة بركوب الخيل والصيد عليها وتملي مناظر الطبيعة، فقد قتل أبوه، وانقلبت حياته من حياة لاهية إلى حياة جادة ومحاولة عاثرة في الأخذ بثأر أبيه ورجع سلطان كندة على بني أسد، وكأنه كان يحس ما ينتظره حين قال في مطولته (ألا عم صباحًا أيها الطلل البالي):

كأَنيَ لم أَركــبْ جَــوادا للــذَّةٍ ... ولم أَتبطَّن كاعبــًا ذاتَ خَلْخــال

ولم أَسْبَأِ الزِّقَّ الرَّوِيَّ ولــم أقــل ... لخيليَ كُرِّى كَرَّةٌ بعــد إجفــالِ[1].

ولعله نظم هذه القصيدة في إبان الدورة الثانية من حياته.

(١) أسبأ: اشتري. الزق: دن الخمر الروى: المملوء، الإجفال: الانهزام في سرعة.

ونحن لا ننتظر منه في هذه الدورة سوى الحزن والألم العميق، فهذا أبوه حجر يقتل وهؤلاء أعمامه يلقون نفس المصير، ومن قبلهم قتل جده الحارث. وهو يسعى في سبيل الأخذ بثأر أبيه، والمنذر بن ماء السماء يطلبه وتتحاماه القبائل والعشائر وهو يتنقل فيما بينها يستغيث ولا مغيث. وربما لقي في أول الأمر شيئًا من العون، ولكن ذلك لم يستمر، فقد أزوروا عنه، وهو يطلب من يجيره، وعين المنذر تتبعه وسيف المنذر مصلت يلمع أمام عينيه. فكان طبيعيًا أن يشكو الدهر وأن يتحدث عن مصيره. وهنا تلقانا مقطوعة رواها الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء، تصور حزنه على آبائه وما تجمع عليه من البلاء، وهي ذات الرقم الحادي عشر في ديوانه، وفيها يقول:

أَرانا مُوضِعين لأَمْرِ غَيْبٍ ... ونُسْحَرُ بالطَّعام وبالشرابِ(١).

عصافيرٌ وذِبَّانٌ ودُودٌ ... وأَجْرَأ من مُجَلَّحَة الذئاب(٢).

وكلُّ مكارم الأَخلاق صارتْ ... إليه هِمَّتي وبه اكتسابي

فبعضَ اللومِ عاذلتي فإني ... ستكفيني التجاربُ وانتسابي

إلى عِرق الثَّرَي وَشَجَتْ عروقي ... وهذا الموتُ يسلبني شبابي(٣).

ونفسِي سوف يَسْلبها وجِرْمي ... فيُلْحقني وشيكا بالتُّرابِ

أَلم أُنْضِ المَطِيَّ بكل خَرْقٍ ... أَمقِّ الطول لَمَّاع السَّراب(٤).

وأَركب في اللُّهام المَجْر حتى ... أَنال مآكلَ القُحَمِ الرِّغاب(٥).

وقد طَوَّفْتُ في الآفاق حتى ... رَضِيتُ من الغنيمة بالإيابِ

---

(١) موضعين: مسرعين. لأمر غيب: بريد الموت المغيب. ونسحر بالطعام: نتهلى ونخدع.

(٢) مجلحة الذئاب: المصممة التي لا ترجع عما تريد.

(٣) وشجت: اشتبكت واتصلت. ويشير يعرق الثري إلى آبائه الذين ماتوا.

(٤) أنض: أهزل بطول الرحلة. والخرق: الفلاة. أمق الطول: واسع الطول.

(٥) اللهام: الجيش الكثيف. المجر: الكثير. المآكل هنا: الغنائم، القحم: جمع قحمة من الاقتحام ويريد التزاحم في شدة. الرغاب: الاسعة.

أَبعدَ الحارثِ الملك بن عمـــرو ... وبعد الخير حُجْـــرٍ ذي القِبـــاب(١).

أُرَجِّى من صروف الدَّهر لِيـــنًا ... ولم تَغْفُلْ عـــن الصُّمِّ الهِضـــاب(٢).

وأَعلمُ أَننـــي عمَّـــا قليـــلٍ ... سأَنْشَبُ في شَبَـــا ظُفُرٍ ونـــاب(٣).

كما لاقي أَبـــي حُجْرٌ وجَـــدِّي ... ولا أَنْسى قتيـــلاً بالكُـــلاب(٤).

فقد ضاع منه الماضي بكل أحلامه، وهو ينظر أمامه في الأفق البعيد بل القريب، فلا يرى إلا وادي العدم الذي يشد إليه الناس جميعًا رحالهم، وهم يتعللون عنه بالطعام والشراب، وهو في انتظارهم، وهم جادون في المسير إليه. ويصغر الناس وتصغر أطماعهم في عينه، ويراهم ضعافًا كالعصافير والذباب والدود، ومع ذلك يسقطون على أطماعهم كالذئا الضارية. ويطلب إلى عاذلته أن تكف عن لومه لتركه اللهو، فإن التجارب غيرت شخصيته خلال ما مر به من أهوال الحياة. وهو ينتسب، فلا يجد أمامه إلا موتى، وهو يترقب نفس الأجل المحتوم، وكأنه شخص آخر سوى هذا الشخص الذي كان يركب الخيل وينضيها في الفلاة الواسعة، والذي كثيرًا ما انتظم في جيوش أبيه الكثيفة، يغنم المغانم الكبيرة. وها هو اليوم يطوف في الآفاق وراء مجده المضيع فلا يظفر إلا بالخيبة واليأس القاتل. وماذا يرجو بعد هذه الصخور الصلبة من آبائه وقد واراها التراب. إنه ينتظره بنفس المصير، فالموت يفتح فاه، وأظفاره وأنيابه توشك أن تفترسه افتراسًا كما افترست جده الحارث وأباه حجرًا وعمه شرحبيل يوم الكلاب.

والمقطوعة رائعة لأنها تصور لنا إحساسه بعبث الكفاح ضد المنذر وكيف كان هذا الإحساس يتعمقه في تلك الفترة من حياته. وليس له بعد ذلك أشعار تستحق الوقوف عندها سوى بعض مقطوعات قصيرة تتداخل فيها رواية الأصمعي مع رواية هشام بن الكلبي، وفيها يمدح ويهجو

---

(١) القباب: الخيام الكبيرة.

(٢) الصمم المصمتة: الجبال. الهضاب: الصلبة.

(٣) شبا كل شئ: حده. أنشب: أعلق.

(٤) قتيل موقعة الكلاب هو عمه شرحبيل.

بعض من كانوا يكرمون جواره أو يسيئون هذا الجوار فلا يمدون يد العون إليه، وهي شظايا صغيرة لا توضح منهجًا في مديح ولا هجاء.

وأكبر الظن أن فيما قدمنا ما يدل على قيمة امرئ القيس، فهو الذي نهج للشعراء الجاهليين من بعده الحديث في بكاء الديار والغزل القصصي ووصف الليل والخيل والصيد والمطر والسيول والشكوى من الدهر، ولعله سبق بأشعار في هذه الموضوعات، ولكنه هو الذي أعطاها النسق النهائي، مظهرًا في ذلك ضروبًا من المهارة الفنية، جعلت السابقين جميعًا يجمعون على تقديمه، سواء العرب في أحاديثهم عنه أو النقاد في نقدهم للشعر الجاهلي، يقول ابن سلام: "سبق امرؤ القيس إلى أشياء ابتداعها، استحسنتها العرب وابتعته فيها الشعراء، منها: استيقاف صحبه والبكاء في الديار ورقة النسيب وقرب المأخذ، وشبه النساء بالظباء والبيض وشبه الخيل بالقبان والعصى، وقيد الأوابد، وأجاد في التشبيه، وفصل بين النسيب وبين المعنى، وكان أحسن طبقته تشبيهًا"[1].

وواضح أن هذه الفقرة من كتاب طبقات فحول الشعراء تقرر أن امرأ القيس هو الذي فتح للجاهليين أبواب النسيب والغزل ووصف النساء والخيل، وهي تضيف إلى ذلك قرب المأخذ، بحيث جعل العبارات قريبة المنال لا يشوبها عسر ولا صعوبة، وأيضًا تضيف أنه فصل بين النسيب والمعنى، فلم يخلطه بشئ، بل أسهب فيه وأفرده عما يليه.

وكل من يقرأ المعلقة وما أثبتناه له من شعر يلاحظ استواءً في العبارات واتساقًا في ترتيب الألفاظ، مما يدل على أنه كان يملك أعنة اللغة في يده، وقليل جدًا ما قد نلاحظ عنده من بعض النبو كقوله السابق في المعلقة:

أحارِ ترى بَرْقًا كـأَن وميضَـه ... كلمع اليدين في حَبِـيٍّ مُكلَّـل

يضئ سَناه أَو مصابيـحُ راهـبٍ ... أَهان السَّليط في الذُّبـال المفتَّـل

فقد كان ترتيب السياق ونسقه يقتضيان أن يُكمل وصفه للبرق بأنه في حبي مكلل وسحاب متراكم وأنه يضيئ سناه، ثم يشبهه بلمع اليدين ومصابيح الراهب. ولكن على كل حال مثل هذا قليل في شعره، إذ قلما نجد فيه اضطرابًا في ترتيب ألفاظه ومعانيه.

---

(١) ابن سلام ص٤٦ وأنظر الشعر والشعراء ١/ ٥٧.

وحقًا ما تقوله الفقرة السابقة عند ابن سلام من أنه أحسن طبقته تشبيهًا، فتشبيهاته جيدة، وهي تتراكم في المعلقة وفي قصيدته (ألاعم صباحًا أيها الطلل البالي) تراكمًا يجعله حقًا صاحب فن التشبيه في العصر الجاهلي فالتشبيهات تتلاحق في صفوف متعاقبة، وقد عقد لها ابن سلام فصلاً في طبقاته[1]، استمده في جملته من القصيدتين السالفتين. وأول ما يلاحظ في هذه التشبيهات أنها مستمدة من واقعه الحسي، وارجع إلى تشبيهاته في المرأة، فتساره يشبهها بالبيضة في بياضها ورقتها، كما يشبهها بالدرة والبقرة الوحشية، أما ترائبها فكالمرآة وأما شعرها الغزير فكعذق النخلة المتداخل، وأما خصرها فلين كالزمام، وأما ساقها فكالبردي في بياضه، وأما أصابعها فكمساويك شجر الإسحل. وكل هذه الأوصاف مبثوثة في المعلقة. وإذا تركنا حديثه فيها عن المرأة إلى حديثه عن الفرس وجدناه يشبهه بخذروف الوليد ومداك العروس وصراية الحنظل والصخرة الملساء تسقطمن عل، كما يشبهه بالظبي في خاصرتيه والنعامة في ساقيه والذئب في عدوه والثعلب في تقريبه وقفزه. ونحس دائمًا أنه يحاول أن يطرف سامعه بما يورد عليه من الصور الغريبة، كقوله:

كأَنَّ دماءَ الهاديــات بنَحْــرِهِ عُصارةُ حِنَّاءٍ بشيــبٍ مرجَّــلِ[2].

فدم الوحش الذي صاده امرؤ القيس يلطخ صدر الفرس فيتراءى كأنه عصارة حناء صبغ بها شيب، إذ لا يكاد يفترق عن الخضاب في شئ. ويخرج من ذلك إلى وصف السيل والمطر، فيفزع إلى التشبيه الكثير، كأنه لا يرى الشعر شيئًا بدونه، وهو لذلك يوشى به كل شيء يعرض له في المعلقة، سواء حين يصف الثريا أو يصف الليل، وقد أبدع في وصفه لقطعه وأجزائه، فهي ماتني تتدافع وتتلاحق غير منتهية، وألم بالوحش، فشبه بقره بعذاري دوار، يقول:

فعنَّ لنا سِــرْبٌ كــأَن نِعَاجَــه عَذارَى دُوَارٍ في المُلاء المذيَّــلِ[3].

وبذلك عكس الصورة فشبه البقر بالنساء، وهو تشبيه مقلوب، تبعه فيه الشعراء، واصبح ضربًا من ضروب الخيال التي ينسجونها.

---

(١) أنظر ابن سلام ص٦٧ وما بعدها.

(٢) الهاديات: المتقدمات من بقر الوحش. مرجل: مسرح.

(٣) السرب: القطيع. النعاج هنا: بقر الوحش. ودوار: صنم كانوا يطوفون به في الجاهلية المذيل: الطويل السابغ.

وننتقل معه إلى مطولته (ألاعم صباحًا أيها الطلل البالي) فتلقانا نفس تشبيهاته للمرأة التي لقيتنا في معلقته، فهي كالظبية وبيضة النعامة، بل هي كالتمثال الجميل يقول:

ويارُبَّ يومٍ قد لهــوتُ وليلــةٍ بآنسةٍ كأَنهــا خــطُّ تمثــالِ

ويشبه وجهها في إشراقه بالمصباح، ويقول غنها لينة ممتلئة كحقف الرمل أو ما استدر منه، ويشبهها بالغصن في اعتدال قوامها وتثنيها، أما شعرها فكشماريخ النخل في تداخله وغزارته. ويعرض لليل ونجومه فيشبهها بمصابيح رهبان، ويحدثنا عن شجاعته وأنه لا يرهب زوج من يغازلها ولا تهديده، فيقول:

أَيقتُلني والمشرفــيُّ مُضاجعــي ومسنونــةٌ زُرْقٌ كأَنْيــاب أَغْــوالِ

وهي صورة طريفة، لأنها تقوم على التخييل والوهم. ويخرج إلى وصف فرسه فيشبهه بالهراوة أو العصا في ضموره وصلابته، ويقول إنه ذعر به قطيع بقر، يجرى البياض والسواد في سيقانه، حتى لكأنها وشى برود يمانية بديعة. ويعود إلى فرسه، فيشبهه بعقاب تنقض انقضاضًا على فريستها، ويقول إن هذه العقاب تصيد الطير وتحمله إلى وكرها، فتأكله إلا قلوبه، فمنها الطرى الغض، ومنها الجاف المتقبض، ويعمل خياله، وما يلبث أن يقول:

كأَنَّ قلــوبَ الطــير رَطْبًــا ويابِسًــا لدى وَكْرها العُنَّابُ والحَشَفُ البالــي

وواضح أنه يشبه القلوب الرطبة بالعناب واليابسة بالحشف البالي أو التمر الردئ الجاف، وهو تشبيه كان القدماء يعجبون به لأن امرأ القيس استطاع أن يلائم ملاءمة خيالية بين أشياء متعددة. ويروي عن بشار أنه قال: ما زلت أحسد امرأ القيس على جمعه في هذا البيت بين تشبيه شيئين بشيئين، حتى قلت:

كأَن مُثارَ النَّقْعِ فــوق رؤوسنــا وأسيافَنا ليــلٌ تهــاوَى كواكبــه[1].

فجمعت فيه بين ثلاثة وثلاثة[2].

---

(١) النقع: الغبار.

(٢) الأغاني (طبعة دار الكتب) ٣/ ١٩٦.

ولعلنا لا نبعد بعد ذلك كله إذا قلنا إن امرأ القيس هو الذي ألهم الشاعر العربي على مر العصور فكرة التشبيه، بل هو الذي وجهه إلى الإسراف في استخدامه، حتى عد ذلك ضربًا رشيقًا من ضروب الزخرف والبديع[1]. وبجانب هذا التشبيه نجد عنده بعض أمثلة للاستعارة المكنية والتصريحية، وهو يأتي بها في قلة، من ذلك قوله في المعلقة يخاطب الليل:

فقلت له لما تمطَّى بصُلْبِهِ وأَردَف أَعجازًا ونَاءَ بكَلْكَلِ

فقد استعار صورة البعير هذا الليل الذي لا يزول. ومضى فاستعار صورة القيد لفرسه،فسماه قيد الأوابد فهي لا تفوته، على نحو ما مر بنا في بيته:

وقد اغْتدى والطيرُ في وُكُناتها بمنجردٍ قَيْدِ الأوابد هَيْكَلِ

وإذا صحت رواية[2] أمال بدلاً من أهان في قوله يصف البرق:

يضيء سناهُ أو مصابيحُ راهبٍ أَمال السَّليطَ في الذُّبال المفتَّلِ

كان البيت يتضمن استعارة بديعة، لأن من معاني أمال رعى، وكأنه استعار صورة رعي الأنعام للنبات لما يفنيه الذبال من الزيت شيئًا فشيئًا. وإذا تركنا معلقته إلى مطولته (ألا أنعم صباحًا) وجدناه يستعير للحلي على نحر صاحبته وتوهجه صورةالجمر، يقول:

كأَنَّ على لبَّاتها جَمْرَ مُصْطَلٍ أَصاب غَضًا جَزْلا وكُفَّ بأَجْذالِ[3].

ومن الحق أن الاستعارة قليلة في أشعاره، ولكنها على كل حال مبثوثة فيها، مثلها مثل لوني البديع المسميين بالطباق والجناس، ومن أمثلة طباقه قوله في المعلقة يصف غدائر صاحبته:

غدائرهُ مستشزراتٌ إلى العُلا تضلُّ المَداري في مُثَنًّى ومُرْسَلِ[4].

وقوله يصف فرسه:

---

(١) أنظر كتاب البديع لابن المعتز (طبعة كراتشقوفسكي) ص ٥٨ وما بعدها.

(٢) ابن المعتز ص٧.

(٣) الغضا: من أشجار نجد. الجزل: الكثير، كف: مد. الأجذال: أصول الشجر. يقول إنه جمر لا يزال متقدًا، لأن بجواره مصطليًا يقلبه ويتعهده ومن حوله أصول شجر الغضا وعيدانه لا يزال يمد بها النار.

(٤) مستشزرات: مفتولات، المداري: الأمشاط.

مكرٍّ مفرٍّ مقبلٍ مديــرٍ معــًا كجُلمود صَخْر حَطَّه السَّيل مـن عــلِ

ومن أمثلة الجناس قوله في غزله:

وإن كنتِ قد ساءَتْك منـى خليقــةٌ فسُلِّى ثيابي من ثيابــك تَنْسُــلِ

وقوله:

أَلا أَيها الليلُ الطويلُ أَلا انْجَلِــى بصُبْحٍ وما الإصباحُ فيك بأَمْثَــلِ

وبجانب ذلك كله نجده يعني بالتلاؤم بين ألفاظه، فقلما تلقانا فيها لفظة نابية في حروفها، وأيضًا نجد عنده عناية واضحة بموسيقاه، ولعله من أجل ذلك كان يكثر من التصريع على نحو ما صنع في المعلقة فقد صرع فيها مرارًا، كما في بيته الذي أنشدناه آنفًا والذي يخاطب فيه الليل. وفي الحق أن الموسيقى تطرد في المعلقة اطرادًا، فلا نحس بنشاز، سوى الزحافات التي يكثر منها على شاكلة قوله:

فجئت وقد نَضَتْ لنــومٍ ثيابهــا لَدَى السِّتْرِ إلا لِبْسَــةَ المتفضِّــلِ

فإن التفعيلة الثانية في حشو البيت "مفاعلن" وليست مفاعيلن. وإذا قرأنا في المعلقة قوله:

مكرٍّ مفرٍّ مقبلٍ مدبــرٍ معــًا كجلمود صخرٍ حطَّه السَّيْلُ من عَــلُ

بضم لام القافية- وهذا ما يقتضيه القياس النحوي تقول: من أسفل الجبل ومن عل أي من أعلاه فتضم اللام على نية حذف المضاف إليه- أصبح في البيت إقواء، وهو يكثر في الشعر الجاهلي وخاصة قديمه. وأيضًا إذا قرأنا وصفه للسيل وغثاثه الملتف بجبل أبان في قوله:

كأَن أَبانًا في أفانيــن وَدْقــه كبيرُ أُناسٍ في بِجــادٍ مزمَّــلُ

بضم اللام في كلمة "مزمل"وهو ما يقتضيه القياس النحوي لأنها صفة لكلمة كبير أناس المرفوعة أصبح في هذا البيت هو الآخر إقواء، إذ اختلفت حركة الروى، فأصبحت مرفوعة بينما هي في بقية القصيدة مجرورة. ويظهر أن هذا لم يكن يكثر عنده.

والحق أنه يعد أبًا للشعر الجاهلي بل للشعر العربي جميعه، فقد استوى عنده في صورة رائعة، سواء من حيث سبقه إلى فنون أجاد فيها، أو من حيث قدرته على الوصف والتشبيه، وقد مضى

يعني بأخيلته ومعانيه وألفاظه مما نجده مائلاً في استعاراته وبعض طباقاته وجناساته، وبذلك أعـد الشعراء من بعده للعناية لحلي معنوية ولفظية مختلفة.